

فلسفة صلاح الحسن

يتوهم الكثيرون أن الإمام الحسن لم ينجح في سياسته ولم يمثل دوره بنجاح ، ويجب على ذلك الأستاذ الكبير كامل سليمان^(١) ويقول إنه من المشهور المتوهم أن الحسن لم يمثل دوره بنجاح - ولكن الشهرة لا تكسب الرأي صحة ولا القول صدقاً لأنها تقوم دائماً على الحق الخالص والواقع الذي لا ريب فيه . فربما قامت الشهرة على عوامل مذهبية أو سياسية أو علمية لا سبيل إلى البرهان على عكسها - بل ربما قامت على أسباب شخصية بحتة ، فشهرة هذا الرأي بالحسن لا تتسم بالصحة والصدق .

إن الحسن قد فكر وقدر وزاد على ما نفكر به ونقدده فأدرك كل ما يرافق حركته من الألف والياء ، وليس من السهل تحديد سياسته من الألف إلى الياء دون التواء ، لأن عصره كان عصر اختلاف في الهوى كأشد ما يكون الاختلاف - ومعارضة في الرغائب كأقوى ما تكون المعارضة مما صعب التحديد وجعل تحسس حركته غير ممكن وسط هيجان تلك الزوبعة التي عُنُفَتْ جداً فاستعمرت قلوب جميع من كان يرزح تحت عبثها قسراً أو اختياراً - فالجور كله قائم ، والعوامل تتضافر على إخماد كل دعوة بأقوى وسائل الكبت والإخماد ، إذ خوى يومئذ نجم الخير وكسدت سوق البر وصار

(١) الحسن بن علي [دراسة وتحليل] للأستاذ كامل سليمان .

النبيل عاراً على صاحبه والفضل نقصاً وصارت أموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس - وجهل الناس قدر المعروف ، ففي هذا الحثك أرائنا لا نملك قوة نخولنا الجزم لأن أستاذاً كتيبة تكتنف العصر وتقف دون الاطلاع على جميع المفارقات والملازمات ولا تسمح لنا بأن نستوضح من حياة الحسن السياسية إلا ناحية الدعة والصدق والبر - وماله من سياسة غير هذه في عصر تحوّل شكلي في الحكم وتحوّل فعلي في النفوس التي لم يتمكن منها الدين ولم يتركز فيها ليكسبها المناعة المتوخاة التي تخولها إعطاء الصورة على حقيقتها - فهناك أناس يهتبلون الفرص ليرهبوا الله في ملكوته - لعدم ترسمهم بالدين الجديد - إرهاباً فيه تطرّف وخروجٌ عن الدين وجادة الصواب - وفيه مروقٌ واستهتارٌ بسنن التكوين - بل فيه استسلام لكل همارٍ مشاء بنميم .

وليس أصعب من أن تقوم الدولة التي تركز على مبادئ الصلاح إذا لم يكن عدد المقتنعين بتلك المبادئ متكاثراً يسمح بإقامة جهاز للحكم وإنشاء قوة منفذة تسهر على حفظ كيان الدولة ومبادئها ! فكم وكم يتطلب الانقلاب من جهاد عنيف وتضحيات عملية حتى يتم وفق رغبة الراغبين وبلغة المؤمنين .

أولاً : من المؤسف أن المؤرخين قد أنحوا باللائمة على الحسن الذي سالم ولم يطعنوا بمعاوية الذي ابتدع بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان ولا أقرها عرف ولا تقليد ، حتى إن بعض المؤرخين كان كلفاً بالقذع عن من ذاب بغيريته دون الإسلام والإنسانية - ومشغولاً بتمدّح من شجن الدين وأهله

لملك زائل ومنشأ ذلك هو الرهبة من الوقعة أو الرغبة في البعد عن القطيعة لدى الملك الزائل مع العلم بأن الحسن صديق رفيق سياسته كانت مُلجمة حقاً بمعنى أنه كان يراد أمره تحت تأثير عاملين : الله والدين في الدرجة الأولى والأحقاد المدخرة للقضاء على الدين في الدرجة الثانية وهو لا يتمكن من إخضاع الطبيعة يومها لأنه ليس سيدها المطلق بل لا بد له من تكيف نفسه حسب نواميلها - مع الاحتفاظ برأيه ليقدر له البقاء .

ثانياً : والتقى يُلجمه ورعه ويردعه عن الزيف على حين نرى أن أمور السياسة بمفهومها العامي لا تستقيم إلا بالمداينة وهذا شيء مفقود في حياة الحسن لأن تقاه قد فطمه عن المكر السيئ ونشأه عن التطلع إلى المرتع الوخيم ، فهو على دين أبيه الذي قال : (والله لو علمت أن المداينة تَسَعِّي في دين الله لفعلت ولكن أهون على في المؤنة) .

ومهما كانت معاني السياسة عنده فهو كان يفصل السياسة عن الدين في حين أن خصمه قد خلط الدين والسياسة والعلم وسائر المظاهر الفكرية خلطاً عجيباً .

وبالحقيقة أن الدين والسياسة مقترنان - فهي المدبرة وهو المتخذ وقد كانت - فعلاً - في يد الأول ألعوبة بيد الدين - وأما في يد الثاني فكان الدين ألعوبة بيدها خصوصاً وهي طيعة والدين صلب - بمعنى أنها يمكن أن تسايره في حين أنه لا يمكن أن يكون تحت سلطتها بوجه من الوجوه فهو يتعارض معها كلما قابلته ، أما هي فلا تتعارض معه إذا قابلها باعتبار

أنها أقرب منه لمظاهر الحياة الدنيا .

ثالثاً : وأكاد أجزم أنه لم يكن الإخفاق حليف الحسن كما يخمن المخمنون - وكم من نهزة كان يغتمها لو شاء - ولكنه كفكف أurdانه لأن قوة الإيمان تزع عن التدهور والسقوط - وتربأ بصاحبها أن يقبل الرفعة بالدنية والمجد بالضعفة وخصوصاً إذا أنشئ صحيح البنية تقى السريرة صافى النفس لا يندار لسانه بشيء فيه ختل أو تغرير وليس من المعقول أن تكون تصرفات الإمام الحسن ممن تضعهم هذه التصرفات فى درج البسطاء لأنه لا يصح عمن عُذَى العلا من محمد ورضع أئداء الحق من فاطمة وورث العلم عن على أن تسف به نفسه أو تفقد به عزيمته ، لأن ثبات عقيدته يفرش طريقه بالاطمئنان كائناً ما كانت الحال .

رابعاً : لقد كان محيط السبط الحسن معقداً لا يكفل له النجاح لدرجة يكون معها قميناً بالوصول إلى ما ينشده ؛ إذ اضمحلت فى محيطه الروحية والمثالية وفنيت الاجتماعية ، ومن ثم طغت الفردية فرأى أن يفسح المجال أمام جموح الخصم ليجىء يوم يرى فيه الناس أنفسهم مشروعية حربه على مروقه كما حارب أبوه على عناده لرسالة محمد ، ولم ينس أبو محمد الأحزاب السياسية التى كانت تعمل فى الخفاء للحد من فكرة الهاشمية والسلالية فخشيها فيما يخشى ، لأنها كانت أحزاباً فيها أخلاط من حيث الدم والعنصر وهذا ما يخاف شره .

وإن المفارقة بين معاصريه وبين الله كانت لا تخوله أن يقيم الدين

بالسيف في وجه دنيا محشودة لصراعه من جانب العدو ومن جانب أنصاره ،
الذين كانوا سيفاً يمينه فضلاً عن يهدد الجموع من الخارج .

سياسة الحسن كانت ممتزجة بالدين :

لقد غاص الإمام الحسن في ذلك كله وفهم منه السر والإعلان وانتهى إلى
الافتناع بصواب ما فعل ، ففعله مرتاح البال ليتاح له الخروج من البلبلة بحل
موفق له آثاره القريبة والبعيدة ، وفي تقدير الكثيرين أنه انتزع هذا الحل
بطريقة تجريبية مذهشة ، لأن دعوته لا يحفظها من الفناء إلا صلحه الميمون
مهما تعرض للنقد اللاذع ، إذ يشترط لقيام الحكومة أن تكون الرعية موالية
للسلطان ومريدة له لتمده بالقوة التي تنعدم في غير الجمهور ، فهل كان
الولاء الجماعي ميسوراً له ؟ وهل توفر له المدد القوي ؟ كلا - لأن سياسته
كانت ممتزجة بالدين بل هي الدين قهراً أو اختياراً ، في حين أن الميل العام
كان يرمى إلى إلغاء الوحدة بين الدين والسياسة ويحصر الدين في المسجد
مجدداً في الأذان والصلاة وغيرهما من الأعمال التعبدية .

وقد حسب معاوية ومن يزعم زعمه أن ذلك التنازل عن أمور الدنيا
قد أتى على الدعوة الهاشمية ونصر الدعوة الأموية إلى الأبد ، وقد اعتقد
الحسن ومن يرى رأيه أن الصلح يزلزل الأموية عاجلاً أو آجلاً وإلى الأبد ،
وقد صدق حدسهما في نطاقين متدابرين : نطاق للدولة الأمويين ضيق
ونطاق لقضية الهاشمين واسع ، فأصاب عاقل أو كاد وأخطأ زاعم أو كاد

فقد تعرضت الأموية لأزمات شديدة فيما بعد زنة ما ذهب ملوكها في تهاديهم وانطلاقهم ، ومنذ أن انسحب الحسن من الساح وتقى لهم الجو إلى أن غادر الشام آخر أموى ، وحتى في نقاء الجو كانت تشيع همهمة بقطعها السيف مرة والدرهم مرة أخرى ثم لا يعم أن تنتشر في المجتمع وتلاقى القبول إلى أن حصل الانقلاب في أقل من قرن ، وما نفع حياة دولة لا تعيش في أمانيها مدى القرن ؟ - ولم يخف ذلك على معاوية فإنه لم ينفلت كالمتنمر تماماً بل سار سيرة المعتصب المعترف بالاعتصاب الذى تغلغت في عروقه نظرية (الملك عقيم) فلم يغفل عن صلة الحسن بالمال بشكل كان فيه إثارة ولكن كان فيه مدّ وجزر ، فعمل الاثنين إذن طيعى لأن الأمة كانت يومذاك لا تماثل ولا تنصبّ في قالب واحد لتسير في جانب أحدهما ، إذ عني الأول بتجنب سقوط الأمة وانصرف الثانى إلى طلب الملك فوجده . وعمل الأول كان محاكاة لما يختلج في نفوس جماعة انعكست في باصرته نياتها ، فعرف أن حماسها لم يكن الذخر الذى يدخر ليوم النهضة المباركة ، وعمل صاحبه كان استجابة لما في نفوس أقلية بايعت الدنيا على الموت في سبيلها ولو جمعت ثورات أصحاب الحسن وضرب بعضها ببعض لكانت نتيجتها صفراً ، الأمر الذى جعله يتمشى على مبدأ العناية بالمجموع ليكفل للفرد حياة لا عننة فيها ولا تهويش ، حتى يتسنى للمدين أن يتفرض من حجره بعد فترة تضمخت بالدماء ، فحين خاف أن تطفى المادة على الفرد عمد إلى حل قسم الناس فثنين فئة رجعت إلى المعبد تبتل وتتصوف وتناضل صامته ، وفئة تستجيب

لكل ناعق وتسلك كل طريق - وقد انتظرت الفئتان يوماً تفيقان فيه على كلمتي الحق والخير ، لذا كان هم الحسن الأول تهدئة العاصفة ليتاح للفرد أن يروض نفسه على الدين ، ويمارس حياة فيها استعداد مطبوع على الثورة ضد الباطل فنزل له مهلة التفكير بخطورة الأوضاع . فأعد الكثيرين على هذا النحو إعداداً ممتازاً ومعنى ذلك أن تنازله قد أوجد حالة منكرة ما فتى الأمويون يعالجونها هذا باللين وذاك بالقسوة إلى أن عاونه أخوه ببذل نفسه بعد أن سفع هو أنانيته ، فسالت جميع الجراح وأصبحت الأموية كرة يتقاذفها الناس جميعاً - وكان الأمويون من جملة اللاعبين - وما عثم أن جدّ الجد وتحطمت الكرة فانطوت نفوس على حقد مضطرم ولم تم عن مهمتها قط وانطوت أخرى على نشوة دفعتها إلى اللعب بمقدمات الدين وضلت عما يكفل خلودها ضللاً - ومن ثم ظهر حد فاصل كان يزداد عمقاً وامتداداً عانى الحزبان منه تحاجزاً فيه ويل ، وتناحراً فيه مرارة .

فتنازل الإمام الحسن قد فسح المجال للانتخاب إذ أطلق الحرية للفكر ، فلا بدع أن يضع الشروط على ضوء استنتاجه واجتهاده دون أن يعتمد إلى رقع الثوب البالي فلا يتحقق التماسك بين الثوب والراقع - وإن كثيرين من ذوى المواهب يخفق مواهبهم ضيق المجال في بيئتهم - لأن روجيتهم تكون غير روحية المجموع - فالمصلحون المصلحون هم الذين يبذلون الجهد في تأييد إرادة المجتمع ثم يضحون ليقرّبوا بين وجهات النظر فيحصلوا على سلامة المجتمع وتوحيد الكلمة ثم يعودوا إلى البذر والاستنبات .

وقد ذهب الجميع مع العاطفة والإمام الحسن بمفرده ذهب مع العقل فانتحى المدينة وغاب في طيّ بضعة عشرة سنة يستكمل فيها منهجه فمن يلومه بعد ذلك وهو يعلم أن مبدأه لا يملك أن ينشر على أى كان وأينما كان وفي أى زمان ، لذا توخى فرصة تسمح بإذاعته لئلا يعث مع من يريد له أن يعث فيفرض نظرياته على من لا يُقدر فيه اعتناقها ولا يمكن أن يستجيب لملازماتها ، فليستظر حتى تتوفر الإمكانات من غير أن يلجأ إلى الفرض الجبرى الذى لا دوام له في جانب تزلزلت المتزمتين ومروق المارقين .

ويقولون إن الحسن هادئ لا تحس فيه الحماس ولا تشعر في تجييشه الحرارة ، والحقيقة أن أخلص أنواع الحماسة ، الحماسة التى تحترم الحقوق والواجبات بين الناس فتحول دون وقوع الخلاف - ومن غير الإمام الحسن يقوم بعمل جدير بالأهمية مجرد عن الغاية غير مشوب بشائبة في زمانه ، وهل نحسب عمله حماساً بهذا المفهوم إذ لم يكن عملاً هادئاً مترناً وعقلانياً ، كلا لأن ثمار هدوئه أبلغ منها فيما لو كان نائراً متهوراً - أو ليس من الحمق أن يزوج بالألوف في أتون قد يلتهم ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين ؟ نعم - وإن سكنته أبلغ أثراً من حركات الطيش التى نتمناها عليه ونظن فاعليتها في ذلك اليوم الذى كان كادية فيه السيد المطاع ، فلو حاول أن يجمع مارقاً بسيفه أو أن يعترض خارجاً بلسانه لضرب الأمة في صلبها فما تستطيع قياماً ولا نهوضاً .

بعد هذه النظرة الفلسفية هل وهن الإمام وتهاون أم اتبع السياسة

الحكيمة الرشيدة إذا صالح وهادن ؟ فما كان أحب إليه من أن يرى السمو
 المثالي في نفوسهم فيبث فيها قيساً من نورانيته وشعاعاً من روحانيته ، هو زعيم
 أهل البيت وهو الذي قال في وصف أهل البيت (اعلّموا أنهم أهل بيت
 لا يعيهم عائب ولا يلصق بهم العار)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(والذي نفسى بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا - ألا من آذى
 قرابتي فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله فاستوصوا بأهل بيتي خيراً فإنني
 أخاصمكم عنهم غداً ، ومن أكن خصيমে أخصمه ومن أخصمه دخل
 النار ، ومن حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهداً) .

ولقد برز الإمام الحسن وارتفع في الجوزاء ولكن محيطه ومنطقه كانا
 غير محيطنا ومنطقنا وهذا من الصعب تفسيره لأن الاختلاف كان في
 الجوهر لا في القشور .